منهج الدماميني في اعتراضه على الصفدي في شرحه لقصيدة لامية العجم

د. محمود محمد العامودي*

E.mail: mamoudi@iugaza.edu.ps

* كلية الآداب – الجامعة الإسلامية – غزة – فلسطين

منهج الدماميني في اعتراضه على الصفدي في شرحه لقصيدة لامية العجم

د. محمود محمد العامودي

الملخص:

قمت في هذا البحث بتعريف لقصيدة لامية العجم للطغرائي، وأهميتها في التراث العربي، وخلصت إلى منهج الدماميني في الاعتراض على الصفدي مبينًا النقاط الآتية:

أ- طريقة الدماميني في كتابة نزول الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم.

ب- الألفاظ التي استعملها الدماميني في الاعتراض على الصفدي.

ج- أنواع اعتراض الدماميني على الصفدي.

د- الأخطاء التي وقع فيها الصفدي.

هـ- الأدلة التي استعملها الدماميني في التعليل لصحة رأيه.

مصطلحات أساسية: منهج الدماميني، الصفدي، لامية قصيدة العجم.

The syllebus of Damaminy in objecting the safady's entrapretation of the peom Lameiyat Al Ajam

Dr. Mahmoud Amoudi

Abstract:

In this paper I identify the poem of lameyat Al Ajam for Attoghra'i and its improtance on the Arabic traditions. Aflin then I clarified the lbeory of Ad-damaminy in opposing Assafady slating the following points.

a- Ad-damamminy's method in his book , Nozuul Alaghayth.

b- the vocobalary he used and his method in delcaling with Assafady's errors.

c- the criticd points on assfady.

d- the errors Assfady committed .

f- li evidence wsed by Adamaminy for accounting for the well-formedness of his view.

Keywords: The syllebus of Damaminy, safady's, The poem of lameyat Al Ajam.

مقدمة :

تعد قصيدة لامية العجم للطغرائي المتوفى سنة خمسمائة وثلاث عشرة من الهجرة من أهم القصائد التي حظيت باهتمام بالغ في تاريخ التراث العربي، ولذلك يقول الصفدي[1]: أما فصاحة لفظها فيسبق السمع إلى حفظها، وأما انسجامها فيطوف منه بخمر الأنس جامها، وأما معانيها فنزهة معانيها ... «فقد جاءت القصيدة مليئة بالصور الرائعة والأخلاق السامية، ومثلت خلاصة تجارب الشاعر في الحياة، والقيم التي يؤمن بها ويتحلى بها، والحكم والمُثُل التي استخلصها .

ولهذا حظيت بشروح كثيرة ذكر منها بروكلمان[2] نحو ثلاثين ما بين شرح وتخميس وتشطير ومعارضة.

أما صاحب هذا الشرح الذي ندرسه فهو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عمر المعروف بابن الدماميني المتوفى سنة ثمانمائة وسبع وعشرين من الهجرة وكتابه هو « نزول الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم »[3] وهو عبارة عن مائة وأربعة اعتراضات على الصفدي وهو أبو الصفا صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة سبعمائة وأربع وستين من الهجرة في كتابه « الغيث المسجم في شرح لامية المعجم».

الطُّغْرَائي

اسمه ولقبه :

هو مؤيد الدين أبو إسماعيل بن علي بن محمد بن عبد الصمد الأصبهاني المعروف بالطُّغْرَائي[4]– بضم الطاء المهملة، وسكون الغين المعجمة، وفتح الراء – ونسبته إلى من يكتب الطُّغْرَاء، وهي الطُّرَّةُ التي تكتب في أعلى المناشير فوق البسملة بالقلم الجَلِّي تتضمن اسم الملك وألقابه، وهي كلمة أعجمية محرفة من الطُّرَّةِ[5] .

مولده ونشأته :

ولد في أصبهان سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة[6] ونشأ فيها، ثم ارتحل إلى بغداد سنة خمس وخمسمائة، وقد ضاقت به الحياة، فقال قصيدته المعروفة بلامية العجم يصف فيها حاله ويشكو زمانه[7] .

بدأ حياته السياسية عندما ولي الوزارة في مدينة إربل[8]، وقد خدم السلطان ملك شاه بن أَلَبَ أَرْسَلاَنَ، وكان منشئ ابنه السلطان محمد مدة ملكه متولي ديوان الطغراء، وصاحب ديوان الإنشاء، تشرفت به الدولة السلجوقية، وتشوقت إليه المملكة الأيوبية، وتنقل في المناصب والمراتب وتولى الاستيفاء وترشح للوزارة[9]، وبعد ذلك كان وزيراً للسلطان مسعود بن محمد السلجوقي بالموصل[10] .

مصنفاته :

كان الطغرائي آية في الكتابة والشعر خبيراً بصناعة الكيمياء، له فيها تصانيف أضاع الناس بمزاولتها أموالاً لا تحصى منها :

جامع الأسرار، وتراكيب الأنوار، وحقائق الاستشهادات، وذات الفوائد، والرد على ابن سينا في إبطال الكيمياء، ومصابيح الحكمة، ومفاتيح الرحمة[11]. وله ديوان شعر .

مكانته الشعرية :

لقد امتلك الطغرائي عاطفة جياشة ومقدرة على تصوير تجاربه في الحياة، وقصيدته اللامية خير دليل على ذلك، ففيها يقول الصفدي[12]: أما فصاحة لفظها فيسبق السمع إلى حفظها، وأما انسجامها فيطوف منه بخمر الأنس جامها، وأما معانيها فنزهة معانيها، وأما قوافيها فتذهب القوى فيها، وأما شكواها فترضُّ الأكباد في الأجسام، وأما إغراؤها فيوجب الوثوب على الآساد في الآجام، وأما غزلها فما تذكر معه نغمات الأوتار، وأما مثلها فما هي إلا كالمصابيح في المساجد ذات الأنوار، كأن ناظمها غاص في البحر فأتى بالدرر منضودة أو ارتقى إلى السماء فجاء بالدراري من الأفق مصفودة.

كما كانت لديه القدرة على تصوير المواقف المختلفة في حياته لامتلاكه ناصية اللغة، قال عندما بلغ سبعاً وخمسين سنة وقد جاءه مولود :

هَذَا الصَّغِيرُ الَّذِي وَافَى عَلَى كِبَرِي
سَبْعٌ وَخَمْسُونَ لَوْ مَرَّتْ عَلَى حَجَرِ

ولما عزم السلطان محمود على قتله أَمَرَ به أن يُشَدَّ إلى شجرة، وأن يقف تجاهه جماعة بالسهام، وأن يقف إنسان خلف الشجرة يكتب ما يقول، وقال لأصحاب السهام: لا ترموه حتى أشير إليكم فوقفوا، والسهام مُفَوَّقَةٌ لرميه فأنشد الطغرائي في تلك الحالة :

وَلَقَدْ أَقُولُ لِمَنْ يُسَدِّدُ سَهْمَهُ
نَحْوِي وَأَطْرَافُ المَنِيَّةِ شُرَّعُ
وَالمَوْتُ فِي لَحَظَاتِ أَحْوَرَ طَرْفِه
دُونِي وَقَلْبِي دُونَهُ يَتَقَطَّعُ
بِاللَّهِ فَتِّشْ عَنْ فُؤَادِيَ هَلْ يَرَى
فِيهِ لِغَيْرِ هَوَى الأَحِبَّةِ مَوْضِعُ
أَهْوِنْ بِهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي طَيِّهِ
عَهْدُ الحَبِيبِ وَسِرُّهُ المَسْتَوْدَعُ[14]

فرق له وأمر بإطلاقه، وهكذا كان تأثير شعره على أعدائه .

ويجمل الصفدي رأيه في شعره قائلاً[15]: «فأما شعره فعبر الشعري العبور علو عبارة وسمو استعارة وسموق راية وشروق آية وتناسق مقصد وغاية وتناسب بداية ونهاية».

مقتله :

لما جرى القتال بين السلطان مسعود بن محمد وأخيه محمود بالقرب من همذان، وكانت النصرة لمحمود، فأول من أخذ الأستاذ أبو إسماعيل وزير مسعود، فأخبر به وزير محمود وهو الكمال نظام الدين أبو طالب علي بن أحمد بن حرب السُّمَيْري، فقال الشهاب أسعد، وكان طغرائياً في ذلك الوقت نيابة عن النصير الكاتب: هذا الرجل ملحد يعني الأستاذ فقال وزير محمود: من يكن ملحداً يُقتل، فقُتِل ظلماً[16].

وكانت هذه الواقعة سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقيل: إنه قتل سنة أربع عشرة، وقيل: خمس عشرة، وقيل: ثماني عشَرة، وقد جاوز ستين سنة[17] .

قصيدة لامية العجم :

1. أَصَـالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِي عَـنِ الخَطَـلِ
وَحِلْيَـةُ الفَضْـلِ زَانَتْنِي لَـدَى العَطَلِ
2. مَجْـدِي أَخِـيراً وَمَجْدِي أَوَّلاً شَرَعٌ
وَالشَّمْسُ رَأْدَ الضُّحَى كَالشَّمْسِ فِي الطَّفَـلِ
3. فِيـمَ الإِقَامَـةُ بِالزَّوْرَاءِ لاَ سَـكَنِي
بِهَـا وَلاَ نَاقَتِـي فِيهَـا وَلاَ جَمَلِي
4. نَـاءٍ عَـنِ الأَهْلِ صُفْرُ الكَفِّ مُنْفَرِد
كَالسَّيْفِ عُـرِّيَ مَتْنَـاهُ عَنِ الخِـلَلِ
5. فَـلاَ صَـدِيقٌ إِلَيْهِ مُشْتَكَى حَـزَنِي
وَلاَ أَنِيـسٌ إِلَيْـهِ مُنْتَـهَى جَـذَلِي
6. طَـالَ اغْتِرَابِي حَتَّى حَـنَّ رَاحِلَتِـي
وَرَحْلُهَـا وَقِـرَى العَسَّالَـةِ الـذُّبُلِ
7. وَضَجَّ مِـنْ لَغَبٍ نِضْوَى وَعَـجَّ لِمَـا
يَلْقَـى رِكَابِـي وَلَـجَّ الرَّكْبُ فِي عَذَلِـي
8. أُرِيدُ بَسْـطَةَ كَـفٍّ أَسْتَعِينُ بِهَـا
عَلَـى قَضَـاءِ حُقُـوقٍ لِلْعُلَـى قِبَلِـي
9. وَالدَّهْـرُ يَعْكِـسُ آمَالِـي وَيَقْنَعُنِـي
مِـنَ الغَنِيمَـةِ بَعْـدَ الكَـدِّ بِالقَفَـلِ
10. وَذِي شَـطَاطٍ كَصَـدْرِ الرُّمْحِ مُعْتَقِلٍ
بِمِثْلِـهِ غَـيْرَ هَيَّـابٍ وَلا وَكِـلِ
11. حُلْـوُ الفُكَاهَـةِ مُرُّ الجِدِّ قَدْ مُزِجَتْ
بِشِـدَّةِ البَـأْسِ مِنْـهُ رِقَّـةُ الغَـزَلِ
12. طَرَدْتُ سَرْحَ الكَرَى عَنْ وِرْدِ مُقْلَتِـهِ
وَاللَّيْـلُ أَغْرَى سَـوَامَ النَّـوْمِ بِالمُقَـلِ
13. وَالرَّكْبُ مِيلٌ عَلَى الأَكْـوَارِ مِنْ طَرَبٍ
صَـاحٍ وَآخَـرَ مِـنْ خَمْـرِ الهَوَى ثَمِلِ
14. فَقُلْتُ أَدْعُـوكَ لِلْجُلَّى لِتَنْصُرَنِي
وَأَنْتَ تَخْـذُلُنِـي فِي الحَـادِثِ الجَـلَلِ
15. تَنَـامُ عَنِّـي وَعَيْنُ النَّجْـمِ سَاهِـرَةٌ
وَتَسْتَحِيـلُ وَصِبْـغُ اللَّيْلِ لَـمْ يَحُـلِ
16. فَهَـلْ تُعِـينُ عَلَـى غَيٍّ هَمَمْتُ بِـهِ
وَالغَـيُّ يَزْجُـرُ أَحْيَـاناً عَـنِ الفَشَـلِ
17. إِنِّي أُرِيدُ طُـرُوقَ الجِـزْعِ مِـنْ إِضَمٍ
وَقَـدْ حَمَتْـهُ رُمَـاةُ الحَـيِّ مِـنْ ثُعَلِ
18. يَحْمُـونَ بِالبِيضِ وَالسُّمْرِ اللِّدَانِ بِـهِ
سُـودَ الغَـدَائِرِ حُمْـرَ الحَلْـيِ وَالحُلَـلِ
19. فَسِـرْ بِنَـا فِي ذَمَـامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفاً
فَنَفْحَـةُ الطِّيبِ تَهْدِينَـا إِلَى الحِـلَلِ
20. فَالحِبُّ حَيْثُ العِـدَى وَالأُسْـدُ رَابِضَةٌ
حَـوْلَ الكِنَاسِ لَهَـا غَابٌ مِـنَ الأَسَـلِ
21. نَؤُمُّ نَاشِئَـةً بِالجِـزْعِ قَـدْ سُقِيَتْ
نِصَالُهَـا بِمِيَـاهِ الغُنْـجِ وَالكَحَـلِ
22. قَدْ زَادَ طِيبَ أَحَـادِيثِ الكِـرَامِ بِهَـا
مَـا بِالكَـرَائِمِ مِـنْ جُـبْنٍ وَمِـنْ بَخَـلِ
23. يَقْتُلْنَ أَنْضَـاءَ حُبٍّ لاَ حَـرَاكَ بِهَـا
وَيَنْحَـرُونَ كِـرَامَ الخَـيْلِ وَالإِبِـلِ
24. يَشْـفَى لَدِيغُ الغَـوَانِي فِي بُيُوتِهِـمُ
بِنَهْلَـةٍ مِـنْ غَـدِيرِ الخَمْـرِ وَالعَسَـلِ
25. لَعَـلَّ إِلْمَامَـةً بِالجِـزْعِ ثَانِيَـةً
يَدُبُّ مِنْهَـا نَسِيمُ البُرْءِ فِي عِـلَلِ
26. لاَ أَكْـرَهُ الطَّعْنَةَ النَّجْـلاَءَ قَدْ شُفِعَتْ
بِرَشْفَـةٍ مِـنْ نِبَـالِ الأَعْـيُنِ النُّجُـلِ
27. وَلاَ أَهَابُ الصِّفَاحَ البِيضَ تُسْـعِدُنِي
بِاللَّمْـحِ مِـنْ خَـلَلِ الأَسْـتَارِ وَالكِـلَلِ
28. وَلاَ أُخَـلُّ بِغِـزْلاَنٍ أُغَازِلُهَـا
وَلَوْ دَهَتْنِـي أُسُـودُ الغِيْـلِ بِالغِيَـلِ
29. حُبُّ السَّـلاَمَـةِ يُثْنِي هَـمَّ صَاحِبِـهِ
عَـنِ المَعَالِـي وَيُغْـرِي المَـرْءَ بِالكَسَـلِ

30. فَإِنْ جَنَحْتَ إِلَيْهِ فَاتَّخِذْ نَفَقاً
فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي الجَوِّ فَاعْتَزِلِ
31. وَدَعْ غِمَارَ العُلاَ لِلمُقْدِمِينَ عَلَى
رُكُوبِهَا وَاقْتَنِعْ مِنْهُنَّ بِالبَلَلِ
32. يَرْضَى الذَّلِيلُ بِخَفْضِ العَيْشِ يَحْفَظُهُ
وَالعِزُّ عِنْدَ رَسِيمِ الأَيْنُقِ الذُّلُلِ
33. فَادْرَأْ بِهَا فِي نُحُورِ البِيدِ جَافِلَةً
مُعَارِضَاتِ مَثَانِي اللُّجْمِ بِالجُدُلِ
34. إِنَّ العُلاَ حَدَّثَتْنِي وَهْيَ صَادِقَةٌ
فِيمَا تُحَدِّثُ أَنَّ العِزَّ فِي النُّقَلِ
35. لَوْ كَانَ فِي شَرَفِ المَأْوَى بُلُوغُ مُنًى
لَمْ تَبْرَحِ الشَّمْسُ يَوْماً دَارَةَ الحَمَلِ
36. أَهَبْتُ بِالحَظِّ لَوْ نَادَيْتُ مُسْتَمِعاً
وَالحَظُّ عَنِّيَ بِالجُهَّالِ فِي شُغُلِ
37. لَعَلَّهُ إِنْ بَدَا فَضْلِي وَنَقْصُهُمُ
لِعَيْنِهِ نَامَ عَنْهُمْ أَوْ تَنَبَّهَ لِي
38. أُعَلِّلُ النَّفْسَ بِالآمَالِ أَرْقُبُهَا
مَا أَضْيَقَ العَيْشَ لَوْلاَ فُسْحَةُ الأَمَلِ
39. لَمْ أَرْتَضِ العَيْشَ وَالأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ
فَكَيْفَ أَرْضَى وَقَدْ وَلَّتْ عَلَى عَجَلِ
40. غَالَى بِنَفْسِي عِرْفَانِي بِقِيمَتِهَا
فَصُنْتُهَا عَنْ رَخِيصِ القَدْرِ مُبْتَذَلِ
41. وَعَادَةُ النَّصْلِ أَنْ يُزْهَى بِجَوْهَرِهِ
وَلَيْسَ يَعْمَلُ إِلاَّ فِي يَدَيْ بَطَلِ
42. مَا كُنْتُ أُثِيرُ أَنْ يَمْتَدَّ بِي زَمَنِي
حَتَّى أَرَى دَوْلَةَ الأَوْغَادِ وَالسَّفَلِ
43. تَقَدَّمَتْنِي أُنَاسٌ كَانَ شَوْطُهُمُ
وَرَاءَ خَطْوِيَ إِذْ أَمْشِي عَلَى مَهَلِ
44. هَذَا جَزَاءُ امْرِئٍ أَقْرَانُهُ دَرَجُوا
مِنْ قَبْلِهِ فَتَمَنَّى فُسْحَةَ الأَجَلِ
45. وَإِنْ عَلاَنِي مَنْ دُونِي فَلاَ عَجَبٌ
لِي أُسْوَةٌ بِانْحِطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلِ
46. فَاصْبِرْ لَهَا غَيْرَ مُحْتَالٍ وَلاَ ضَجِرٍ
فِي حَادِثِ الدَّهْرِ مَا يُغْنِي عَنِ الحِيَلِ
47. أَعْدَى عَدُوِّكَ أَدْنَى مَنْ وَثِقْتَ بِهِ
فَحَاذِرِ النَّاسَ وَاصْحَبْهُمْ عَلَى دَخَلِ
48. فَإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا
مَنْ لاَ يُعَوِّلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلِ
49. غَاضَ الوَفَاءُ وَفَاضَ الغَدْرُ وَانْفَرَجَتْ
مَسَافَةُ الخُلْفِ بَيْنَ القَوْلِ وَالعَمَلِ
50. وَحُسْنُ ظَنِّكَ بِالأَيَّامِ مُعْجِزَةٌ
فَظُنَّ شَرًّا وَكُنْ مِنْهَا عَلَى وَجَلِ
51. وَشَانَ صِدْقَكَ عِنْدَ النَّاسِ كِذْبُهُمُ
وَهَلْ يُطَابَقُ مُعْوَجٌّ بِمُعْتَدِلِ
52. إِنْ كَانَ يَنْجَعُ شَيْءٌ فِي ثَبَاتِهِمُ
عَلَى العُهُودِ فَسَبْقُ السَّيْفِ بِالعَذَلِ
53. يَا وَارِداً سُؤْرَ عَيْشٍ كُلُّهُ كَدَرٌ
أَنْفَقْتَ صَفْوَكَ فِي أَيَّامِكَ الأُوَلِ
54. فِيمَ اعْتِرَاضُكَ لُجَّ البَحْرِ تَرْكَبُهُ
وَأَنْتَ يَكْفِيكَ مِنْهُ مَصَّةُ الوَشَلِ
55. مُلْكُ القَنَاعَةِ لاَ يُخْشَى عَلَيْهِ وَلاَ
يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الأَنْصَارِ والخَوَلِ
56. تَرْجُو البَقَاءَ بِدَارٍ لاَ ثَبَاتَ لَهَا
فَهَلْ سَمِعْتَ بِظِلٍّ غَيْرِ مُنْتَقِلِ
57. وَيَا خَبِيراً عَلَى الأَسْرَارِ مُطَّلِعاً
اصْمُتْ فَفِي الصَّمْتِ مَنْجَاةٌ مِنَ الزَّلَلِ
58. قَدْ رَشَّحُوكَ لأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ
فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الهَمَلِ

سبب التسمية بلامية العجم :

تساؤلات كثيرة تتبادر إلى الذهن حول هذه التسمية:

لماذا سميت هذه القصيدة بلامية العجم؟ ومتى عرفت بلامية العجم؟ ومن سمّاها بهذه التسمية؟ هل لأنها كتبت بلغة العجم، أو لأن صاحبها من العجم ؟

إذا كان صاحبها الطغرائي من العجم الفرس، هل يصح وصفها بلامية العجم وتكتب باللغة العربية؟

لماذا لم تُسَمَّ هذه القصيدة بلامية الطغرائي مثلما سميت كثير من القصائد المشهورات لبعض الشعراء مثل: دالية النابغة الذبياني، وبائية ذي الرمة، ولامية الأعشى، وبائية السيد الحميري، ولامية الصفدي، ولامية ابن الوردي، ولامية ابن المقري؟

فقد نسبت هذه القصائد إلى أصحابها، ومن المؤكد أن الذين نسبوها ليسوا أصحابها، وإنما من قام بدراستها وشرحها من العلماء .

وإذا استعرضنا الأقوال التي تقربنا من الإجابة على هذه التساؤلات، نقول: لقد عرفت هذه القصيدة بلامية العجم قديماً فأول شراحها العكبري (ت سنة 616هـ) يضع عنواناً لشرحه قائلاً[18]: «كتاب شرح لامية العجم»، وفي النهاية يقول[19]: «آخر شرح لامية العجم لأبي بقاء العكبري»، وأما ياقوت (ت 626هـ) فيقول[20]: «ومن شعر مؤيد الدين الطغرائي قصيدته التي تداولها الرواة وتناقلتها الألسن المعروفة بلامية العجم »، ويقول ابن خلكان[21] (ت 681هـ) وابن العماد[22] (ت1089هـ): «والطغرائي المذكور له ديوان شعر جيد ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم، وكان عملها ببغداد في سنة خمس وخمسمائة يصف حاله ويشكو زمانه» .

واستمر شراح القصيدة يذكرون هذا الاسم فالصفدي[23] (ت764هـ) يقول: «فإن القصيدة الموسومة بلامية العجم ... " ويقول[24] في موطن آخر: «وللطغرائي المذكور ديوان شعر جيد، ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم»، وأما الدميري[25] (ت 808هـ) فعنوان شرحه «شرح لامية العجم » ويقول[26] في موطن آخر: «فإن القصيدة الموسومة بلامية العجم رحم الله ناظمها ..»، وبحرق اليمني[27] (ت 930هـ) يقول: «فإن القصيدة الفريدة المشهورة بلامية العجم ..».

إن هذه القصيدة قد كتبت بلسان عربي مبين، فهي لم تكتب بالفارسية وترجمت إلى العربية، إنها بحق من روائع الشعر العربي، وقد تناولها الشراح بتفسير وتوضيح مفردات القصيدة ومعانيها كما قاموا بإعراب ألفاظها .

يقول الصفدي[28]: «وأما هذه القصيدة اللامية، فإنما سمّيتْ لامية العجم تشبيهاً لها بلامية العرب لأنها تضاهيها في حكمها وأمثالها . ولامية العرب هي التي قالها الشنفرى وأولها :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيَّكُمْ
فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَلُ

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال: علِّموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق . ورأيت لها شرحاً حسناً

تامّ المقاصد كثير الفوائد، وهو مجلّد جيّد وحسبك أن الناس قالوا في هذه القصيدة: إنها لامية العجم في نظير تلك بمعنى إن كان للعرب قصيدة لاميّة مشهورة بالأدب والأمثال والحِكم، فإن للعجم لامية مثلها تناظرها، وإضافة الشيء إلى شيء مشهورٍ أو عظيم يدل على شرف المضاف . ألا ترى قوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ عَدُواً للّهِ ومَلاَئكتِه﴾ [البقرة 2/92] أشرف لهم من قوله: «والملائكةِ لإضافتهم إليه».

يبقى احتمال واحد لتسميتها بلامية العجم، وهو كون صاحب هذه القصيدة من العجم فهو من أصبهان .

وفي ظننا أن الذي سمى هذه القصيدة بلامية العجم هو الطغرائي نفسه صاحب القصيدة، لينالَه الشرف والشهرة بمقارنته بالشنفرى صاحب لامية العرب ذي الشهرة العالية، والتي يقول فيها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه: «علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق».

وأتناول منهجه في الاعتراض على الصفدي بتوضيح النقاط الآتية :

أولاً: طريقة الدماميني في كتابه «نزول الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم»

1- بدأ الدماميني كتابه بمقدمة تحدث فيها عن النقاط الآتية:

أ- الحمد لله والثناء عليه، ثم الصلاة والسلام على رسوله – صلى الله عليه وسلم.

ب- الأسباب التي دفعته إلى هذه الاعتراضات .

ج- سبب تسميته لهذا الكتاب بنزول الغيث .

2- يستخدم الدماميني أسلوب قال أي الصفدي ثم أقول أي الدماميني، وهذا غالب في معظم اعتراضاته .

3- يستعمل في بداية الاعتراض غالباً العبارات الآتية:

أ- أقول لا نسلم .[10ب ؛12أ ؛15ب ؛19ب ؛ 24 ب؛ [32أ](*)

ب- لأن فيه تسليماً . [10ب](*)

ج- لا يكاد يسلم . [17أ](*)

4- يستعمل في نهاية الاعتراض الأشياء الآتية:

أ- عبارة: «والله تعالى أعلم». [8أ؛8ب؛10أ؛18أ؛29ب؛32ب](×)

ب- كلمة: «فتأمله». [8ب؛9ب؛12أ؛14أ؛17ب؛19 ب؛21أ؛28ب؛31أ؛33أ؛33ب؛34ب](*)

ج- عبارة فيها تناقض آراء الصفدي . [18أ ؛ 19أ](*)

د- عبارة فيها تقريع للصفدي مثل: «لقد أبان هذا المعترض عن عجائب تنادي عليه بالفضيحة»[11ب](*)، أو «إن هذا لشيء عجاب». [29أ](*)

هـ- بيت من الشعر فيه تقريع للصفدي مثل [3أ؛ 11ب](*):

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ
عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

ثانياً: الألفاظ التي استعملها الدماميني في الاعتراض على الصفدي

لقد استخدم الدماميني أخشن الألفاظ وأوعرها في انتقاده للصفدي، ففي المقدمة يقول [1ب](*): «وقفت عليه وقوف منتقد لما فيه من الزيف، سالك معه سبيل الإنصاف، منكب عن طريق الحيف، فوجدت هذا الصلاح قد ارتكب من الفساد خطباً جليلاً، وكادت الآداب تقول عانية له: ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، ورأيت فيه سقطات كثيرة لا يقال عن الأصاغر ولا يقال منها العابر، ومباحث نازلة عن درجة الاعتبار يفخر بها مع قلة جذواها ويكاثر، فأردت أولاً نبذ هذا الكتاب وطرحه، وعزمت على أن أطرد عن ورد نظري شرحه، إذ في الاشتغال بهذه الترهات تضييع للزمان، وعائق عن نيل الأماني والأمان».

ثم يقول [2أ](*): «رأيت أن أسمى هذه المناقشات بنزول الغيث؛ لأنها التي أنزلته إلى الحضيض وأوقعته من اعتراضاتها في الطويل العريض».

لقد استخدم الدماميني أسلوب الاستهزاء والسخرية بالصفدي يقول [3أ](*): «وقد اهتدى المصنف إلى أسلوب أمجاده في موضع آخر من هذا الكتاب».

نعم، لقد انتقى الدماميني الألفاظ الجارحة التي تدعو إلى التنديد بالصفدي والغض منه، والإزراء عليه، وجر كل نقيصه إليه، وهذه هي الألفاظ التي رصدتها واستعملها الدماميني في اعتراضه عليه:

1- فالظاهر أن الأول سهو منه، ومثل هذا لا يخفى على أصاغر الطلبة [3ب](*).

2- كيف أوقعته في هذه الورطة، فسجل على نفسه بأنه لو ولي الحكم في هذا البيت لقضي فيه بما أداه إليه هواه، وهو حكم باطل كما قررناه [3ب](*).

3- فقد استبان لك أن الصفدي سرق من ابن مماتي معنى بيته وغالب ألفاظه [5أ](*).

4- فما ذكره الصفدي دعوى مجردة لم تعضد بشهادة نقل [5ب](*).

5- وظاهر أن ذلك خطأ من سوء الذوق، وعدم معرفة بكلام القوم، والاعتراض عن التدبير لاصطلاحاته [6أ](*).

6- قوله: فنصب على أن السيف عري من الخلل لا من غيرها، كلام يؤذن بجهل لمقتضيات اللسان العربي؛ لأن من لا تفيد هذا المعنى الذي ذكره، ولا يدل عليه بطريق من طرق الدلالات، ولا أعرف من أين استفاد هذا السيف من الخلل لا من غيرها [8ب](*).

7- لقد أبان هذا المعترض – أي الصفدي – عن عجائب تنادي عليه بالفضيحة ألهمنا الله رشدنا بمنه وكرمه [11ب](*).

8- الظاهر أن هذا المصنف – أي الصفدي – مولع بالاعتراض والتعرض لما لا يعنيه، فيرسل عنان قلمه، فيقع في المرعى الوبيل [11ب](*).

9- أقول: لقد بالغ في التشنيع على خصمه، وأنه لا يجدر بالطنز عليه، فإنه أورد كلاماً ساقطاً

فهل يقول بعض من له إلمام بعلم العربية أنه لو كان جمع يد لقيل فيه بأيدي بإثبات الياء، وليت هذا الباحث الفاضل راجع أوائل الكتب المنتشرة بين المبتدئين فاطلع منها كيفية العمل في قاض [12ب](*) .

10- ولو قصر هذا الرجل - أي الصفدي - عن الدخول فيما لا يعنيه لسلم من هذه المهالك التي يوقعه فيها مطالبه العجيبة [12ب](*) .

11- ومن تقع منه هذه الأبحاث كان الواجب عليه الوقوف عن الخوض في هذه المشكلات، وعدم التعرض لما لا قبل له[14أ](*) .

12- تجرأ هذا الرجل على عادته فنسب أهل البيان إلى التقصير في تقرير الآية على مرادهم، وأخذ يستدرك عليهم معنى غريباً لم ينتبهوا له بزعمه، فخبط عشواء، ولا امتراء في أن كلام أهل البديع في غاية الحسن [16أ](*) .

13- وهذا لعمري غاية العجب ... فما هو الخبط [17أ](*) .

14- هذا كلام غريب خارج عن نمط ما يقرره الأئمة في هذا المحل[18ب](*) .

15- أقول ما أحق هذا الكلام بأن يتمثل فيه بقول القائل:

فَقَاقِعُ مَا تَحْتَهَا طَائِلٌ
كَأَنَّهَا شِعْرُ الأَبْيُوردي

فهم عن الطغرائي ما لم يقصده، وأخذ يعترض على ذلك الفهم الذي لم يحم حوله حوائم القصد، ولا أرسلت نحوه سهام العرض [19أ](*) .

16- أقول أراد المصنف أن يعرف بطبيعته حتى في الفقه فنسب الكفر إلى الواقف على لفظ رجال في القراءة المذكورة [19ب](*) .

17- أقول: استحسن المصنف ما لا يستحق الاستحسان [20ب](*) .

18- وتردد في أن الرجل مسبوق إلى هذه المعاني، وفي إيراده لها دليل على اعترافه بالسرقة، فيجب القطع بذلك، ولا شك فيه [22أ](*) .

19- أقول: جرى أيضاً على عادته بالتبجح بالأمور السهلة، وما اقتنع بذلك حتى لوح بتقدمه على الإمام تقي الدين بن تيمية حيث نسبه إلى العجز ظناً منه أن عدوله عن الجواب إلى الشكر قصور منه، وهذه المسألة أوضح من أن يخفى عن مثل هذا الإمام مع اشتهارها فيما بين القوم [22أ](*) .

20- أقول: لو استحى هذا الرجل ما سطر بقلمه هذه الفضائح، وكفاك بهذا الموضع شاهداً على معرفته بالإعراب [26ب](*) .

21- وكثير من الأطفال يتقن هذا المحل، ويلقنه في أول تعلمه لعلامات الإعراب، فمن يصدر منه هذا الجهل العظيم، كيف يصح إطلاق اسم الفاضل عليه [27أ](*) .

22- هذا كله مما يطلعك على قصور هذا الرجل، ويترجم لك عن تأخره عن الانتظام في سلك الطلبة [28أ](*) .

23- أقول: ما زال هذا الرجل مولعاً بالاعتراض على ابن نباته شيخه قصداً لإطفاء ذكره، ويأبى

الله إلا أن يتم نوره، وانظر هذا الاعتراض الذي أورده هنا ما أوهنه وأوهاه [28أ](*).

24- فانظر إلى جرأة هذا الرجل وإقدامه على تخطئة إمام عظيم المقدار [29ب](*).

25- أقول: هكذا يكون الأدباء العارفون بلغة العرب المحكمون لمعنى الحقيقة والمجاز، هل هذا إلا هوس وهذيان [30أ](*).

26- وأنت ترى هذا الرجل كيف فسر الزائد بما يقضي كونه حشواً ثم مثل بآية من كتاب الله، نعوذ بالله من الجهل [30أ](*).

27- أقول: هذا أيضاً من الأعاجيب، فإنه يوهم إذا قيل يا عمر بن الخطاب كان المنادي منصوباً، لأنه مضاف، وهذه سقطة لا يغسل دنس عارها البحر [32ب](*).

28- فما هذا التشدق الذي تعاناه هذا الرجل [32أ](*).

29- أقول: هو خطأ [35ب](*).

30- أقول: لو صدر هذا القول من مبتدئ في فن العربية لعد ذلك من سقطاته، كيف يقال: إن الباء الداخلة على الأيام متعلق بالظن، والأيام مفعول أول؟

ما هذا إلا تهافت من القول، وخطل من الرأي، ولو تأمل قولهم: إن ظن يدخل على مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر لم يقل هذا الكلام، ولاستحى أن يتفوه به [35ب](*).

31- أما ادعاؤه أن السبق مبتدأ، وأن قوله للعذل خبره، فكلام من لم يفهم هذا البيت إذا انحل تركيبه بهذا التقدير الذي قاله إلى قولك أن يقع شيء في بقاء عهودهم فسبق السيف ثابت للعذل، فانظر هل لهذا الكلام محصل أو يرتضي عاقل أن يقوله [36ب](*).

32- فما الذي زعمه الصفدي عند العروضيين، وما رأيت أقل حياء منه، حيث نظم نفسه في سلك أئمة الأدب الذين لطف ذوقهم مع أن قيامه في فن الأدب وغيره ما قد رأيت، ثم قوله ولو تركنا العقل إلى آخره كلام عجيب ليت شعري أي مدخل للعقل في الإيطاء، أو جعل بعض الحروف روياً دون بعض إن هذا لعقل ضعيف [38أ](*).

33- فقد بان لك بذلك أن المعترض قل أن يتكلم في علم من العلوم بكلام موجه، ولو سكت عن هذه الفضائح التي تصدر منه لكان أولى، والله الموفق للصواب [39ب](*).

هذه الألفاظ النابية التي استعملها الدماميني والمندة بالصفدي، لم تدل إلا على خلق غير سوى، ولم تجد قلباً من الحقد خالياً، ولا نظراً إلا ويبدي المساوياً.

وربما تدل على حسد الدماميني للصفدي بسبب ما ناله من إطراء العلماء لهذا الكتاب، وقد اعتمد عليه غير عالم إما ملخصاً له أو مستفيداً منه، مما حدا أحد العلماء أن يتصدى للدماميني، ويرجع سهامه إلى عنقه ألا وهو علاء الدين الآسي الذي ألف كتابه الموسوم بـ «تحكيم العقول بأفول البدر بالنزول» معترضاً على الدماميني، يقول الآسي في مقدمته[29]: «إن نفس التسمية فيه من باب قلب المعنى الحسن إلى المستهجن، فحاباه تعصباً، وتحمل تغصباً، فمال ميل البدر في المثول إلى أفق الأفول، ولم

يرض حالة التوسط في المقال، ببراعة الاستهلال، فوقع في النقص بعد الكمال، واستمطر نزول غيثه بواد غير ذي زرع، وأجرى كميت سبق لسانه بحلبة ليس لها ضرع، فكانت منزلة خصامة فيها بالذراع، فأوسع ببزة أخلاقه فيها الباع ...».

ثالثاً: أنواع الاعتراض عند الدماميني:

قام الدماميني بالاعتراض على الصفدي في مائة وأربع مسائل على الرغم من تركه مسائل أخرى يقول [39ب](*): «هذا آخر ما قصدت إثباته في هذه الأوراق من المناقشات التي سمح بها سحاب الفكر العارض على غيث الأدب الذي انسجم، مع أني تركت أشياء لم أذكرها خوف الإطالة والملل، والمحل قابل للإطناب، ومتسع لأكثر مما أوردته، فليقتصر على هذا القدر، ففيه كفاية».

وقد تنوعت اعتراضاته لتشمل المسائل الآتية:

1- اعتراضٌ واحدٌ يبين سبب تسميته القصيدة بلامية العجم .

2- أربعةٌ وخمسون موضعاً في النحو والإعراب .

3- ثمانيةَ عشرَ موضعاً في اللغة والمعنى .

4- تسعة مواضع في سرقاته الشعرية .

5- ثمانية مواضع في مسائل بلاغية .

6- سبعة مواضع في الصرف .

7- ثلاثة مواضع في العروض والقافية .

8- ثلاثة مواضع في تضمن المسألة الواحدة عدة قضايا مثل المعنى وسرقة شعرية أو المعنى والنحو أو المعنى والعروض والبلاغة .

9- اعتراض واحد في المنطق .

رابعاً: الأخطاء التي وقع فيها الصفدي في نظر الدماميني:

لقد تنوعت الأخطاء التي رصدها الدماميني، ووقع فيها الصفدي، وكذلك تنوعت طريقة الدماميني في التعامل مع هذه الأخطاء، وكيفية الرد عليها، كل ذلك ما سنوضحه فيما يلي:

1 - يعترض الدماميني على الصفدي في سبب تسمية القصيدة بلامية العجم، يقول الصفدي[30]: وأما هذه القصيدة اللامية، فإنها سميت لامية العجم تشبيهاً لها بلامية العرب ؛ لأنها تضاهيها في حكمها وأمثالها ...».

يقول الدماميني [2أ](*): أما الإضافة الواقعة في قولهم لامية العرب فمشعرة بالتعظيم والشرف المضاف من جهة شرف المضاف إليه إذ العرب هم أهل اللسان المبين الراسخون أقداماً في البلاغة مهرة البيان وفرسان الكلام وجهابذة الفصاحة، فلا جرم أن إضافة المقول إليهم توجب تشريفاً وتنويهاً لشأنه، وأما العجم فليسوا بهذه المثابة، ولا قربت منها بل هم أبعد الناس عن الفصاحة، وأقلهم تحصلاً لملكة اللسان القويم، لا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند، ومن يكون بهذه الصفة فكيف تدل الإضافة إليه على شرف، ولو قيل بدلالتها على العكس لكان صواباً، والله أعلم».

2 - يعترض الدماميني على الصفدي في بعض المسائل النحوية أو إعراب بعض المفردات، فمثلاً يقول الصفدي[31]: في أثناء الكلام على قوله:

لَـمْ أَرْتَـضِ العَيْشَ وَالأَيَّـامُ مُقْبِلَـةٌ
فَكَيْـفَ أَرْضَـى وَقَـدْ وَلَّـتْ عَلَـى عَجَلِ

«الفاء الداخلة على كيف جواب للنفي».

يقول الدماميني [30أ](*): كأنه سمع النحاة يقولون ينصب الفعل المقترن بالفاء إذا وقع جواباً لأحد تلك الأمور الستة أو السبعة، ويعدون منها النفي، ويمثلون له بقولك ما تأتينا فتحدثنا، ويقولون معناه على أحد الوجهين: ما تأتينا فكيف تحدثنا، فاعتقد هـذا المصنف أن الفـاء إذا وقعت بعد النفي كانت للجواب، فأخطأ من وجهين: الأول: أنه جعل الفاء نفسها جواب النفي، وذلك غير صحيح، إذ الجواب إن سلم إطلاقه فإنما يطلق على ما في خبر الفاء بعد أحد تلك الأمور على نفس تلك الفاء إذ هي للعطف، الثاني: أن الجواب إنما يطلق على ما بعد الفاء الواقعة بعد النفي مثلاً إذا كان ذلك الواقع بعدها فعلاً منصوباً، وما نحن فيه بخلاف ذلك«.

3- يعترض الدماميني على الصفدي في تفسيره لبعض المعاني أو المفردات اللغوية، فمثلاً يقول الصفدي(32): عند الكلام على قوله:

أُرِيـدُ بَسْطَـةَ كَـفٍّ أَسْـتَعِينُ بِهَـا
عَلَـى قَضَـاءِ حُقُـوقٍ لِلْعُلَـى قِبَلِـي

«القبل: الطاقة، مالى به قبل أي طاقة».

يقول الدماميني [2ب](*): «القبل وإن كان بمعنى الطاقة فلا معنى له هنا، أو لا ينتظم معه التركيب الواقع في البيت بالتفسير المذكور، وإنما مراده شيء آخر، قال الجوهري(33): يقال: لي قِبَلَ فُلاَنٍ حَقٌّ أي عنده، فبهذا يفسر كلام الطغرائي، ولا ينبغي أن يقال فيه غير هذا، ولا يحتاج معه إلى محل تكلف».

4- يعترض الدماميني على الصفدي قي سرقاته الشعرية، فمثلاً يقول الصفدي(34): وقلت:

أَلاَ فَاسْقِنِي مِنْ رِيقَةٍ لَذَّ طَعْمُهَـا
بِفِيكَ وَلاَ تَبْخَلْ وَقُلْ لِي هِيَ الخَمْرُ
وَحُطَّ لِثَامـاً حَجَّبَ اللَّثْمُ عَنْ فَمِي
فَلاَ خَيْرَ فِي اللَّذَّاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ

يقول الدماميني [7ب](*): إنما اهتدى إلى هذا التضمين من قول الشيخ جمال الدين بن نباته – رحمه الله:

لَـقَـدْ كنـت في لـذات ثغـرك دائـمـاً
لـيـالي لَمْ يمنـع علـى عَـاشِـقٍ ثَغْـرُ
فـأمـا وسـتر دونـهـا مـن سَـوَارِب
فلا خَيْرَ فِي اللذاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ

وهذه عادة الصفدي مع هذا الرجل، ومن وقف على تصنيف ابن نباته الذي وضعه في هذا المعنى وسماه خبز الشعير شاهد العجب، ودونك الحكم بين هذين التضمينين«.

5- يعترض الدماميني على الصفدي بناء على أخطاء في مسائل بلاغية، فمثلاً يقول الصفدي(35) معلقاً على قول الشاعر شمس الدين محمد بن العفيف التلمساني :

يَـا بِـأَبِـي مـعـاطـف وأعـيُنُ
يَـصُـولُ مِـنْـهَـا رَامِـحٌ وَنَـابِـلُ
فَهَـذِهِ ذَوَابِـلٌ نَوَاظِـرُ
وَهَـذِهِ نَوَاضِـرٌ ذَوَابِـلُ

هـذا من أعلى طبقات هـذا النوع ؛ لأنـه رد العجر على الصدر بألفاظه مع اختلاف المعنى«.

يقول الدماميني [12أ](*): «لا نسلم أنه رد العجر

عن الصدر بألفاظه، فإن النواظر الأولى بالظاء مشتقة من النظر، والنواضر الثانية بالضاد مشتقة من النضرة، فوضح أن بين اللفظين تخالفاً، فصدق أنه لم يعد ألفاظ العجر بألفاظ الصدر، وهو خلاف ما ادعى، وعلى أن هذا النوع من البديع يسمى العكس والتبديل، وهو المفسر عندهم بأن يقدم في الكلام جزأ ثم يعكس، فيقدم ما أخرت، ويؤخر ما قدمت كما في قولهم: عادات السادات سادات العادات، وقولهم: كلام الملوك ملوك الكلام، قلت: ومنه قول الباخرزي:

لَقَدْ ظَلَمَ القمريُّ إذ ناحَ باكياً
فَهَا أَنَا ذو شَوْقٍ ولا طَوْقَ لي بِهِ

فالطوق الأول يعني الطاقة، والطوق الثاني واحد الأطواق، وهو الخيط المخيط بالعنق، وأما رد العجز على الصدر فله معنى آخر لا يناسب غرض الصفدي».

6- يعترض الدماميني على الصفدي في بعض المسائل الصرفية، فمثلاً في البيت الثالث عشر :

وَالرَّكْبُ ميلٌ عَلَى الأَكْوَارِ مِنْ طَرَبٍ
صَاحٍ وآخَرَ مِنْ خَمْرِ الكَرَى ثَمِلِ

يقول الصفدي[37]: «كان أصل ميل ميلاً - بضم الميم - كمل تقول: أحمر وحُمُر، ولكنهم استثقلوا الضمة قبل حرف العلة، وهو الياء، فقلبوا الضمة إلى جنس ما بعدها، فكانت كسرة كما في بيع وقيل، وكما في ميزان وميعاد، الأصل ضم أوائل هذه الأربعة، ولكن فعلوا ما ذكرت لك».

يقول الدماميني [17أ][*]: هذا صريح في أن أصل كل واحد من ميزان وميعاد مفعال - بضم الميم - وهذا لعمرى غاية العجب، فإن كلاً من هاتين الكلمتين فاؤها واو ؛ لأن ميزان مأخوذ من الوزن وميعاد من الوعد، فإذا كانت الميم مضمومة كما قال فإن الموجب لقلب هذه الواو ياء مع أن الياء لو وقعت في هذا المحل، وكان قبلها ضمة قلبت واو كما في موقظ وموسر إذ أصلهما ميقظ وميسر هكذا بضم الميم، وهما مأخوذان من اليقظة واليسر، فقلبت الياء واواً لوقوعها ساكنة بعد ضمة، فلا وجه حينئذ لقلب الواو ياء في هذا الموضع، ثم لا خلاف أن وزن ميزان وميعاد مفعال بكسر الميم، وأن هذه الكسر أصلية، فما هذا الخبط».

7- يعترض الدماميني على الصفدي بناء على أخطاء في مسائل العروض والقافية، فمثلاً يقول الصفدي[38]: وما أحسن قول أبي فراس الحمداني:

تَنَاهَضَ النَّاسُ لِلْمَعَالي
لَمَّا رَأَوْا نَحْوَهَا نُهُوضِي
تَكَلَّفُوا المَكْرُ مَاتَ كَدًّا
تَكَلُّفُ النَّظْمِ بِالعَرُوضِي[39]

وقول ابن حجاج :

مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُولُ
مَسَائِلٌ كُلُّهَا فُضُولُ
قَدْ كَانَ شِعْرُ الوَرَى صَحِيحاً
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الخَلِيلُ

قلت: هذا الوزن يعرف بمخلع البسيط، ولا بد للباغي من مصرع فإن ابن الحجاج بغى على الخليل، فأورده بغيه مصرعاً فظيعاً، وأوقعه الله في زحاف هذا الوزن بعينه ؛ لأنه قال أول قصيدته التي له في حرف الباء:

... عِنْدِي أَحْلَى وَأَطْيَبْ

مِـــنْ عِنَـــبٍ أَصْفَـــــــرٍ مُـزَبَّـبْ

فإن وزنه: مستفعلن فعولن، فأوقع مفعولن موقع فاعلن، والعجز وزنه مفتعلن بدلاً عن مستفعلن بالطي»

يقول الدماميني [2أ–ب](*): «ليته سكت عن هذا التشنيع، فإنه أجمل به وأستر له، وقد اشتمل كلامه على أخطاء من وجوه .

أما أولاً: فالذي يظهر من كلامه أن مفعولن مزاحف عن فاعلن، فإنه قال: وأوقعه في زحاف هذا الوزن بعينه، وعلله ذلك بأنه نظم هذا البيت، وأتى فيه بمفعولن مكان فاعلن، فدل على أن السبب في وقوعه في زحاف هذا الوزن جعله مفعولن في موضع فاعلن، وهذا ليس زحاف بإجماع من أئمة العروض ؛ لأن الزحاف عندهم تغيير يلحق ثواني الأسباب، وغيرهم يزيد على غير لزوم ... »

8– يعترض الدماميني على تعليقات الصفدي الآتية:

أ– قد يعترض الصفدي على شعر شعراء، فينتصر الدماميني لهم، ففي البيت الثامن والعشرين .

وَلاَ أُخِـــلُّ بِغِـــــزْلاَنٍ تُغَازِلُنِـــــي
وَلَـوْ دَهَـتْنِـي أُسُـودُ الغَيْـلِ بِالغِيَـلِ

يقول الصفدي(40): قال الصاحب جمال الدين بن مطروح:

أَرْسَـلْـتُـهَـا وَالـعَـوَالِي فِي الـطـلا تـردُّ
فِي مَـوْقِـفٍ فِـيـهِ يَنْسَـى الـوَالِـدَ الـوَلَـدُ
وَمَـــا نَسَيْتُـك وَالأَرْوَاحُ سَائِلَـةٌ
عَلَـى السُّيُـوفِ وَنَـارِ الحَـــرْبِ تَتَّقِـدُ

قلت ليس في نسيان الولد لوالده كبير أمر ولا مبالغة، ولو عكس لكان أحسن، فإن إشفاق الوالد على الولد أكثر وحنوه أكبر .

يقول الدماميني [20أ–ب](*): يجوز أن يكون هذا الكلام جارياً على خلاف مقتضى الظاهر بأن يجعل من باب القلب، والأصل أن ينسى الوالد الولد، ويقول حينئذ بما ذهب إليه السكاكي من أنه مقبول مطلقاً أينما وقع، فإنه يكتسب الكلام حساً ويكسوه بهجة، أو يقول: هو جار على مقتضى الظاهر، وأشار بنسيان الولد لوالده إلى هول ذلك الموقف وشدة موقعه في النفوس حيث أذهل الحاضر فيه عن الاستنصار بأشفق الناس عليه وأرأفهم وأشدهم عصبية وانتصاراً له وهو الوالد المفطور على محبته الرامي بنفسه في المهلكات لأجله، فلم يمر بفكره اشتغالاً بما انطوى بقلبه ذلك الموقف من المهالك والمشاق، فلا نسلم حينئذ أن الشاعر لو عكس لكان أحسن .

ب– قد يستحسن الصفدي شعر شعراء، فيعترض الدماميني عليهم، فمثلاً يقول الصفدي(41) عندما أنشد قول بعضهم:

كَأَنَّ نَضِيدَ الفَحْمِ خوف شَرَارِه
إذ الـنَّـارُ مَـسَّـتْ جِـلْـدَهُ فَـتَـلَـوَّنَـا
تَذَكَّرَ أَيَّامَ السَّحَابِ التي جَرَت
بِمَـنْـبَـتِـه لمـا تَـــأَوَّدَ أَغْـصَـنَـا
فَأَنْبَتَ مِنْـهُ الآبَنُـوسُ بَنَفْسَجـاً
وَأَثْمَـــرَ عُنَّابـاً وَأَوْرَقَ سَوْسَنَـا

قلت: وأظن الجو بأن القواس سام هذا المرعى، ولمح هذا المعنى فنقله إلى الراووق اقتداراً وصنعاً فقال:

وَلَمَّا حَكَى الرَّاووق في العين شكلهُ
وَقَـدْ عَـلَّقَ العنقودُ في سَالِفِ الدَّهْرِ
تَذَكَّـرَ عَهْـداً بِالكُـرُوم فَكَلَّـهُ
عيون عَلَى أَيَّام عَصْرِ الصِّبَا يَجْرِي

قلت: قل من يحسن أن ينشده معرباً لقدم

معناه، والوجه في إعرابه أن يكون العنقود منصوباً على أنه مفعول حكى، وشكله فاعل، وعلق مفعول ضمير مستتر يعود على العنقود، ففيه تقديم وتأخير وتقدير. ولما حكى شكل الراووق العنقود في العين، وقد علق هو سالف الدهر«.

يقول الدماميني[20ب](*): «استحسن المصنف ما لا يستحق الاستحسان، والبيت الأول من بيت الجوبان في غاية القلق ونهاية صعوبة التركيب، ودلالته على المعنى المراد منه غير ظاهرة الخطل الواقع في نظمه، وذلك من التعقيد المخل بالفصاحة، فليس هذا البيت من البراعة في قبيل ولا دبير، فلا حاجة إلى تضييع الزمن باستعذابه ولا وجه لاستحسانه «

ج- قد يعترض الصفدي على بعض العلماء في مسائل مختلفة، فينتصر الدماميني لهم، فمثلاً يقول الصفدي[42] عند إيراده قول البحتري :

قِفْ مَشُوقاً أَوْ مُسْعِداً أو حَزِينـاً
أَوْ مُعِينـاً أَوْ عَـاذِراً أَوْ عَـذُولا[43]

قال ابن الأثير في المثل السائر: هذا من فساد التقسيم، فإن المشوق قد يكون حزيناً، والمسعد قد يكون معيناً، وكذلك قد يكون المسعد عاذراً .

قلت: وفيما ادعاه ابن الأثير نظر إذ ليس كل حزين مشوقاً ؛ لأن الحزين قد يكون غير مشتاق ؛ لأنه قد يكون الحبيب عنده غير غائب عن عيانه، ولكنه معرض عنه غير ملتفت إليه فهنا الحزن موجود من غير شوق، ولا كل مسعد عاذراً، فإن الإنسان قد يساعد صاحب البلية، وهو غير عاذر له إنما يفعل ذلك رحمة وشفقة ورقة، فبطل ما اعترض به ابن الأثير على البحتري الفحل«.

يقول الدماميني[9ب](×): كلام ابن الأثير متجهٌ، وذلك لأن من شرط صحة التقسيم أن يكون الأقسام متميزاً بعضها على بعض بحيث لا يصدق الشيء على قسمه، والبحتري جعل هذه الأوصاف الستة أقساماً لحالة المخاطب المذكور، وجعل كلاً منها قسماً للآخر مع أن بعضها يصدق على بعض، فالمشوق قد يكون حزيناً فيصدق عليه فلا يكون حينئذ قسماً له، والغرض أنه قسم هذا خلف، وكذا المسعد قد يكون عاذراً، والكلام فيه كالكلام في الأول يوضح أن لما قاله ابن الأثير وجهاً ظاهراً وإن رده بما ذكر غير صحيح، وأما قول الراد قد يوجد الحزن بدون الشوق والإسعاد بدون العذر، فهو وإن سلم فلا يجري في الرد شيئاً ؛ لأن الخصم لم يدع أن الحزن لا يوجد بدون الشوق، وأن الإسعاد لا يكون بغير العذر حتى يعترض عليه بهذا الكلام، وإنما أراد ما قلناه، وهو مراد صحيح فتأمله .

9- يعترض الدماميني على الصفدي بناء على تناقض آراؤه، فمثلاً يقول الصفدي[44] في أثناء الكلام على إعراب البيت العشرين:

فَالحِبُّ حَيْثُ العدَى وَالأُسْدُ رَابِضَةٌ
حَيْثُ الكِنَاسِ لَهَا غَابٌ مِنَ الأَسَلِ

لَهَا: جار ومجرور، وهو خبر متقدم ؛ لأن المبتدأ نكرة، وهو غاب .

ومِنَ الأَسَلِ: جار ومجرور، في موضع صفة لغاب .

يقول الدماميني [19أ](*): تعليله تقديم الخبر بأن المبتدأ نكرة دليل على أن الخبر عنده مصحح للابتداء بالنكرة، وعلى ذلك يكون تقديم الخبر واجباً، وقوله: إن « مِنَ الأَسَلِ « صفة لغاب مقتض ؛

لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الظاهرة، فيجوز حينئذ الابتداء بها، فلا يكون تقديم الجار والمجرور مصححاً، ولا وقوعه قبلها واجباً، ففي كلامه تدافع.

10- يعترض الدماميني على الصفدي بسبب ضعف أسلوبه، فمثلاً يقول الصفدي[45] في أثناء شرحه للبيت الواحد والخمسين:

وَشَانَ صِدْقَكَ عِنْدَ النَّاسِ كِذْبُهُمُ
وَهَلْ يُطَابَقُ مُعْوَجٌّ بِمُعْتَدِلِ

أقول: سبحان الله العظيم، ولا أنت يا مؤيد الدين، ما طابقت بين المعوج والمعتدل ؛ لأن المعوج إنما يطابقه المستقيم .

يرد الدماميني عليه بقوله[36ب](*): قال الجوهري في الصحاح تعديل الشيء تقويمه، يقال: عدلته فاعتدل، أي قومه فاستقام، فإذا كان المعتدل يطلق ويراد به المستقيم ذهب اعتراض الصفدي ضائعاً، والعكس التعجب عليه هذا مع أن قوله: ولا أنت يا مؤيد الدين عبارة عامى لا رونق لها ولا طلاوة عليها .

خامساً: الأدلة التي استعملها الدماميني في التعليل لصحة رأيه

لقد استعمل الدماميني وسائل مختلفة للتعليل لصحة رأيه لتأكيد وقوع الصفدي في هذه الأخطاء التي قد تكون بسيطة لا يقع في مثلها صغار الطلبة كما يقول الدماميني، وهذه الأدلة هي:

1- تناقض آراء الصفدي نفسه في المسألة الواحدة، فمثلاً يقول[18أ](*): إن حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر، وإنما عملت هذا العمل ؛ لأنها وأخواتها أشبهت الفعل، وذكر وجه الشبه، ثم قال فأعطى هذا الباب أحسن حالات العمل وأقواها، وهو تقديم المفعول على الفاعل لشبه اسمها بالمفعول، وخبرها بالفاعل، فإن قلت أحسن الحالات للفعل تقدم الفاعل، قلت: إنما يمنع ليكون للأصل مزية ويعلم فرعية إنَّ وبابها في العمل .

أقول: الجواب مقتضٍ لتسليم ما ذكر في السؤال من أن أحسن الحالات تقديم الفاعل، ومقرر لذلك وهو خلاف ما ذكره أولاً حيث قال: فأعطى هذا الباب أحسن حالات العمل، وهو تقديم المفعول على الفاعل، فالتناقض في ذلك ظاهر .

2- الأصول النحوية وهي:

أ- السماع، فمثلاً يقول: هذا مسموع عن العرب[2ب](*) .

ب- القياس، فمثلاً يقول[26أ](*): والذي يظهر من جهة قواعد الصرف أن اليد لا تجمع على أياد إذ لا قياس يؤدي إلى ذلك اللهم إلا أن تكون العرب قد نطقت بذلك، فيكون من الشواذ الذي لا قياس عليها، وأما رد ماله ثابت بالنقل من بعض اللغة مجرد أى تخيله عقل شخص من المتأدبين فلا سبيل إليه بحال.

ج- الإجماع، فمثلاً يقول [3ب](*): والذي عليه الجماعة.

ويقول أيضاً [18ب](*): ولا شك أن إنكار التبعيض بهذا الوجه لم يقل به أحد، ولا يعرف لمتقدم ولا متأخر

ويقول أيضاً [3أ](*): إن القول بذلك خرق للإجماع.

ويقول أيضاً [15ب](*): ولا حاجة إلى ادعاء تضمين الفعل معنى فعل آخر، فإن ذلك مما يأباه كثير من النحاة .

3- القواعد الكلية للنحاة مثل:

أ- الابتعاد عن التعسف في التأويل، فمثلاً يقول [8أ] (*): فما الحامل على ارتكاب وجه فيه تعسف وتغيير كثير، والعدول عن وجه سالم عن تلك الوصمات .

ب- الابتعاد عن التأويل الركيك والتكلف البعيد، فمثلاً يقول [16أ](*): «إن جعل معنى قوله: ﴿سَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل92/7]، وهو تأويل ركيك لا يليق حمل الآية عليه مع وجود ما هو صريح في المقابلة عن هذه التكليفات البعيدة .

ج- الحمل على ما لا تقدير فيه أولى مما فيه تقدير، فمثلاً يقول [18أ](*): وقد تقرر في صناعة العربية أن الكلام إذا دار بين أن يحمل على وجه لا تقدير فيه ووجه فيه تقدير، فحمله على مالا تقدير فيه أولى .

د- ما لا يحتاج إلى حذف أولى مما فيه حذف، فمثلاً يقول [27ب](*): ادعاؤه أن ما موصولة بمعنى الذي مع إمكان جعلها مصدرية، أي وهي صادقة في حديثها، وهو أولى ؛ لأن جعلها موصولاً اسمياً يستدعي ضميراً عائداً، وهو محذوف بخلاف ما لو جعلت موصولاً حرفياً، وحمل اللفظ على ما لا حذف فيه أولى من حمله على ما فيه حذف .

4- رأي علماء النحو واللغة .

فإذا كانت المسألة نحوية فإنه يعضد رأيه بآراء بعض النحاة وخاصة ابن مالك وابن هشام، فمثلاً يقول [9ب-10أ](*): «قال عند الكلام على قوله:

طَالَ اغْتِرَابِي حَتَّى حَنَّ رَاحِلَتِي
وَرَحْلُهَا وَقَرَى العَسَّالَةِ الذُّبُلِ

الذبل: مجرور على أنه صفة لمجرور، وهو العسالة، والصفة لها شروحاً، وهي أن يكون فيها أربعة من عشرة، وهي الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتعريف والتأنيث والتنكيروالرفع والنصب والجر، فالذبل فيها أربعة من هذه العشرة، وهي الجمع ؛ لأنه جمع ذابل والتعريف والتأنيث والجر ...

أقول: جرى في إطلاق الصفة التي تتبع الموصوف في أربعة من عشرة على ما وقع للكثير من النحاة، والصواب تقيد هذه الصفة بالحقيقة كما قاله الشيخ جمال الدين بن هشام، وإلا فالصفة السببية إنما تتبع موصوفها في اثنين من خمسة، واحد من أوجه الإعراب وواحد من التعريف والتنكير، وأما الإفراد والتذكير وأضدادهما فهي فيها كالفعل، تقول: مررت برجلين قائم أبوهما ورجال قائم أباؤهم ورجل قائمة أمه، وامرأة قائمة أبوها، إلا أن الصفة إذا رفعت جميعاً جاز فيه الإفراد والتنكير في سعة الكلام، تقول: مررت برجل قاعد غلمانه وقعود غلمانه».

وأما إذا كانت المسألة لغوية، فإنه يعتمد على كلام الجوهري صاحب الصحاح ليعضد رأيه يقول [20ب](*): إذا أفرط الحب سمى عشقاً، فالعشق محبة مفرطة، وليس بإفراط المحبة كما قال بعضهم، فيكون أخص من المحبة ؛ لأن كل عشق محبه، وليس كل محبة عشقاً .

أقول: المرجع في تفسير هذه الألفاظ إنما هو إلى أقوال أهل اللغة، وقد صرح الجوهري في الصحاح بأن العشق فرط المحبة، ولم تر من أنكر ذلك ولا تعقبه، فما الموجب لهذا الإنكار مع أن الأمر فيما قال سهل والله الموفق للصواب .

الهوامش

(*) النجمة ترمز إلى كتاب نزول الغيث للدماميني .

1) الغيث المسجم 1 / 10 .

2) بروكلمان 5 /7 – 11 .

3) هـذا الكتاب مخطوط بدر الكتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، وقـد اعتمدت في دراسته على ست نسخ منها . وسوف أقوم بتحقيقه إن شاء الله تعالى .

4) معجم الأدباء 10 /56–57 ووفيات الأعيان 2 /185 والغيث المسجم 1 /16 .

5) معجم الأدباء 10 /57 وشذرات الذهب 4 /43 .

6) معجم الأدباء 10 /59 وبروكلمان 5/5 .

7) وفيات الأعيان 2/ 185 والغيث المسجم 1 /16 وشذرات الذهب 4 /42 .

8) وفيات الأعيان 2 /189 والغيث المسجم 1 /16 .

9) معجم الأدباء 10 /57–58 .

10) وفيات الأعيان 2 /189 والغيث المسجم 1 /16 وشذرات الذهب 4 /42 .

11) معجم الأدباء 10 /58 .

12) الغيث المسجم 1 /10 .

13) وفيات الأعيان 2 /190 وشذرات الذهب 4 /43 .

14) معجم الأدباء 10 /59 .

15) الغيث المسجم 1 /18 .

16) وفيات الأعيان 2 /189 وشذرات الذهب 4 /42 .

17) وفيات الأعيان 2 /190 وشذرات الذهب 4 /42–43 .

18) شرح لامية العجم للعكبري ق1ب .

19) شرح لامية العجم للعكبري ق18ب .

20) معجم الأدباء 10 /59 .

21) وفيات الأعيان 2 /185 .

22) شذرات الذهب 4 /42 .

23) الغيث المسجم 1 /10 .

24) الغيث المسجم 1 /16 .

25) شرح لامية العجم للدميري ق1أ .

26) شرح لامية العجم للدميري ق1ب .

27) شرح لامية العجم لبحرق اليمني ق/1صب .

28) الغيث المسجم 1 /27 .

29) تحكيم العقول ق1ب .

30) الغيث المسجم 1 /27 .

31) الغيث المسجم 2 /172 وفيه فقط: «الفاء للتعقيب» ولم أجد ما أثبته الدماميني في نزول الغيث ق30أ واعترض عليه، وكذلك ما انتصر له الآسي في تحكيم العقول ق 53 ب – 54أ .

32) الغيث المسجم 1 /213 .

33) الصحاح (قبل) 5 /1796 .

34) الغيث المسجم 1 /125 .

35) الغيث المسجم 1 /203 .

36) البيتان للباخرزي في ديوانه 139 .

37) الغيث المسجم 1 /304 .

38) الغيث المسجم 1 /55 .

39) البيتان لأبي فراس الحمداني في ديوانه 107 .

40) الغيث المسجم 2 /40 .

41) الغيث المسجم 1 /425–426 .

42) الغيث المسجم 1 /157 .

43) البيت للبحتري في ديوانه ق 2/677 حـ 3 ص1762 .

44) الغيث المسجم 1 /383 .

45) الغيث المسجم 2 /358 .

مصادر البحث ومراجعه

1 – تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان – ترجمة عبد الحليم النجار والدكتور رمضان عبد التواب والدكتور السيد يعقوب بكر – دار المعارف – القاهرة 1959م – 1977م .

2 – تحكيم العقول بأفول البدر بالنزول، لنور الدين علي بن محمد الأقبرسي (ت 862هـ) – مخطوط بدار الكتب المصرية – ولدي مصورة عنها .

3 – ديوان الباخرزي، جمع وتحقيق محمد التونجي – دار صادر – بيروت 1414هـ – 1994م .

4 – ديوان البحتري، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي – دار المعارف – الطبعة الثالثة – القاهرة 1397هـ – 1977م .

5 – ديوان أبي فراس الحمداني، شرح وتقديم عباس عبد الساتر – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – بيروت – 1404هـ – 1983م .

6 – شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت 1089هـ) – دار الفكر – بيروت 1399هـ – 1979م .

7 – شرح لامية العجم، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت 616هـ) – تحقيق الدكتور محمود محمد العامودي – نشر بمجلة الجامعة الإسلامية بغزة المجلد العاشر– العدد الأول – سنة 1422هـ– 2002م .

8 – شرح لامية العجم، لأبي البقاء كمال الدين بن محمد بن موسى الدميري (ت 808هـ) – مخطوط بدار الكتب المصرية – ولدي مصورة عنها .

9 – شرح لامية العجم، لمحمد بن عمر بن مبارك الخضرمي الشهير ببحرق اليمني (ت 930هـ) – مخطوط بدار الكتب المصرية – ولدي مصورة عنها .

10 – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت 398هـ) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – دار العلم للملايين – الطبعة الثالثة – بيروت 1404هـ – 1984م.

11 – الغيث المسجم في شرح لامية العجم، لأبي الصفا صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت 764هـ) – دار الكتب العلمية – الطبعة الثانية – بيروت 1411هـ – 1990م.

12 – معجم الأدباء، لأبي عبد الله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت626هـ) – دار الفكر – الطبعة الثالثة – بيروت 1400هـ – 1980م .

13 – نزول الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم، لبدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني (ت 827هـ) – مخطوط بدار الكتب المصرية – ولدي صورة عنها.

وفيات الأعيان وإنباء أنباء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر خلكان (ت 681هـ) – تحقيق الدكتور إحسان عباس – دار صادر – بيروت بدون تاريخ.